



عمر الخيام

عمر الخيام شاعرٌ فارسيٌّ عاش في القرن الخامس للهجرة (٤٢٣ - ٥١٧) وأدرك فجر القرن السادس . عاش الرجل في فارس في عهد كانت فيه فارس ضمن المملكة العربية ، ومات فتنوسى وما بقي ذكره الا في زوايا بعض المكاتب المجهولة أو غضون بعض التأليف المدفونة ، ولعله الشاعر الشرقى الوحيد الذى يتمتع اليوم بتقديس وإعجاب الغرب . ويعجب القارىء أن يرى شاعراً شرقياً يتمتع بهذا الإعجاب وينعم بهذا التقديس على خمول ذكره وخمود مكانته في البلاد التى بعث لها وينسب اليها .

ومات الخيام ولكنه مات كان غفوة وهى غفوة طويلة امتدت ثمانية قرون كاملة وثب بعدها بفضل شاعر الإنجليزي هو : ادوارد فيتزجيرالد Edward Fitzgerald اكتشفه وترجم رباعياته وشاد بذكره فأصبح الخيام حبيباً إلى كل نفس ، حبيباً إلى كل فؤاد .

ويذكر الخيام فلا يذكر إلا مقرونًا بالشاعر الانجليزي ، كتبت لها الصداقة في الذكر وفي البقاء .

يقول شارلي فروللو مترجم رباعيات الخيام الى الافرنسية :

« من الجذع البالى الذى بنام في ظلال نيسابور انفصل فرع ونما في الغرب فاذا هو بعث ازهور فارس وبعث لعطرها الجليل » . وقد أصاب ، وهو قولٌ حقٌّ وثق فيهِ الى حد بعيد وقد كان فيتزجيرالد « خياماً » في كل شيء ، ولهذا الشبه نحن ندين باكتشاف الخيام .

ورباعيات الخيام هى كل ما بقي من شعر الخيام ولعلها كل شعره . ولها على صغر حجمها وضئيل عددها كل الفضل فيما يتمتع به الخيام من شهرة وذوبوع . ترجمت إلى كل لغة تقرأ وتدرس ، وما من أحد يعنى بالشعر إلا وقد قرأ للخيام أو سمع

به . وقد كان حظ العربية من الخيام غير يسير ، فترجعت رباعياته غير مرة إما عن الإنجليزية أو عن الفرنسية أو عن الفارسية مباشرة . وتناول الرباعيات لكل الذين وصلتنا ترجمتهم فنرى تبايناً في العدد والوحدة ، فعدد ما ترجمه محمد السباعي غير ما ترجمه أحمد رامى ، وهذا الاضطراب في عدد الرباعيات ونحن نقرأها في العربية هو اضطراب عددها وهي في أصلها الفارسي .

يقول أحمد رامى : —

« وصل عددها الى ثمانمائة في أحد مخطوطات كبرج ، وأقدم مخطوط لها في أ كسفورد لا يحوى غير ثمان وخمسين ومائة رباعية » .

وكان من آثار اضطراب العدد اضطراب الوحدة ، ونستطيع أن نرى رأى رامى في هذا الاضطراب في قوله : « فعمر لم ينظم رباعياته في دور واحد من أدوار حياته وإنما نظمها في الفينة بعد الفينة حسب ما أوحى اليه خاطره وأمل عليه وجدانه » . وهو رأى صائب في تفسير خلوها من التماسك والارتباط ، فالفكرة فيها تكرار غير مرة وتعدد في غير مكان . ومما ساعد ولا شك على فقرها الى التماسك تناقل الألسنة لها حتى دخلها التغيير والابدال .

ونستطيع اليوم أن نتبين الخيام فلا نتبينه جزءاً جزءاً ، واضحاً كما كان ، فنبتين فلسفته ونتبين آراءه تائهة من أثر السنين .

عصر الخيام :

عاش الخيام في عهد تدهور المملكة العربية ، وقيام الفتن والمشاحنات مقام السلم والهدوء . فقام ملك أودولة إلا لتقاتل ثم تخلع ، تنقرض دول وتنبعث دُول . فالشعبوية قضت على الوحدة العربية والأناية قضت على كل خير ورفاهية ، فكان عهداً مات في النفوس كل شيء ، غير الأناية التي بقيت تعمل عملها ، وتسير سيراً جاداً ، تطارد الأمن ، وتعهد السبل للنفوضى .

وكانت فوضى أشد ما يمكن أن يتصور الانسان فوضى في الأعصر والأزمان . فالمشاحنات والفتن كانت على قدم وساق : فسيف الدولة يطارد كافور الاخشيدي ، وكافور يطارد سيف الدولة ، ومات سيف الدولة فقام معز الدولة وزحف الى البصرة فقاتل الناصر أبي القاسم البريدي ، ثم زحف الى الموصل وقاتل الناصر ناصر الدولة .

وبعد أن أعلن الفاطميون استقلالهم في المغرب وزحفوا إلى مصر وأصبحت القاهرة قاعدتهم سارت مطامعهم فامتلكوا دمشق والشام .

وقام القرامطة بناوشون الفاطميين وقطعوا عنهم كل هدوء وصفاء .

وقام الروم إلى المملكة العربية ، فقتلوا ، ونهبوا ، وعاثوا فساداً .

وقام بختيار ولعب دوراً أنانياً ، ونشبت سخيمة بينه وبين حاجبه سبكتكين التركي فنار ونهب دار بختيار في بغداد ، وتولى زمام الأمر فيها .

وعلى هذا النحو كانت البلاد الإسلامية في القرن الرابع . وكان القرن الخامس قاتلهم الدولة الأموية بالاندلس ، فافسدت البلاد وأصبحت وحدتها الإسلامية ذكرى في صدر التاريخ ، وقام فيها ملوك الطوائف يتقاتلون .

وقام الملحقيون في المشرق « يريدون مكاناً تحت الشمس » فقاتلوا آل سبكتكين ، وامتلكوا خراسان وجرجان ، وظل تقوذهم ينمو وأمرهم يعظم حتى امتلك طغول بك أصبهان وأذربيجان ، ثم وصل إلى بغداد وخطب له فيها بالملك ، في حين خطب فيها بالملك للفاطميين ، واستمرت هاته النعمة تتردد ، طمع ، وقتال ، والكلمة للقوة ، حتى كانت الحرب الصليبية ، وكانت تلك المعامع الكبيرة وتلك المعارك الدامية بين المسيحية والإسلام .

وذكرنا هذا أو كان يجب أن نسطر صورة أوضح وأبين عن تلك القرون الدامية . ولكن يستطيع أن يتبين القارئ مما كتبناه على إجلاله تصادم الأهواء وتضارب المطامع ، وهي الفكرة التي نقصد إليها ، ونسعى لإظهارها ، كانت أشد ما يمكن أن تبدو للعين كما هي .

وذكرنا أمم الحوادث وما ذكرنا جميعها فإذا الأنانية هي روح ذلك العهد ، وهي روح وجدت في ذلك العهد مرتعاً خصباً طلقاً ، لا تمتر فيه ولا اصطدام فكانت بفضلها أبرز ما يمكن أن تبدو للعين واضحة جلية ، لا ظلال على جوهرها ولا غبار . وهي روح ما قبعت بالبلاد الإسلامية ، ولكنها تجاوزتها إلى البلاد الأوروبية ، فقام الغرب على ما به من جهل وعبودية ، وقام الشرق على ما به من تداعر وانحلال . وكانت الأنانية أنانية إنسانية صمت السهل والجبل ، واكتصحت العرافيل والعقبات ، وجعلت من الإنسان إنساناً كما أراد الله ، يتألم بأنانيته ولا يستطيع غير التألم والعناء .

فلسفة الخيام :

هذا هو عصر الخيام ، وهذا هو العهد الذي عاش فيه وتألم الخيام وتبرّم بالدينا . وعبثاً يحاول الانسان تذوّق لذة العيش ، ورائق الحياة في هذا العهد الموبوء :

الدهر لا يعطى الذى نأملُ وفى سبيل اليأس ما نعملُ
ونحن فى الدنيا على همها يسوقنا حادى الردى المعجلُ
الخيبة تنتهى كل مسلك والالم والحرمان خاتمة المطاف . ما خير أن يعنى
الانسان نفسه بادراك ما يسمى اليه ، باطل الأباطيل أن يعلل نفسه بمنال الحياة بعد
أن الت الحياة على نفسها أن لا تعطى الذى نأمل — وما الانسان ؟ أيعاند
الأقدار ؟

جئتُ هذا الكون كالماء سجم ثم أرتدُّ كأنفاس النسم
والماء يمشى فهل كان يدري إلى أين يمشى ؟ ويرتد النسم فهل كان يعلم أنى يرتد ؟
والانساء ماء ، والانسان نسم ، يمشى لا مشية له فى مسيره ، لا يعلم أنى ينتهى ومن
أين يأتى ، وكل ما يستطيع علمه أنه يمشى دامى الأقدام :

يا دهرُ أكثرت البلى والخرابُ وسُمت كل الناس سوء العذاب
وهو عذاب الحياة ثم عذاب المبودية :

أفنيْتُ عمرى فى اكتناه القضا وكشف ما يحجبه فى الخفاء
فلم أجد أسرارهِ وانقضى عمرى وأحسست ديبَ الفناء
يأس من معرفة الهناء وعجز عن إدراك القضا ، وانقضاء العمر هباء ، فالعبودية
هى نعمة السماء . هذه هى الحياة عبودية بعد عبودية ، وعذاب إثر عذاب ،
وشقاء يتلو شقاء :

لقد أمضَ الهمُّ قلبى الجريح أين النديم السمح ، أين الصبوح ؟
هات أسقنى كأس الطلى السلسل وغنّى لحنًا مع البلبل
وليس الخيام منهتكاً مع المنهكين المهنتين :

لم أشرب الخمر ابتغاء الطرب ولا دعتنى قلة في الأدب
لكن إحسامي نزاعاً إلى إطلاق تقسى كان كل السبب
وليس الخيام أحد المتصوفة الذين يعنون بالخمر جمال القوة المأوية وسعرها
ولكنه سكير ككل السكيرين ، وخره هي خمر العنب كان يحسوها في خلوته وفي
مجالسه « ليس لأنها أقرب وسيلة ، وأخطر سبيل يسهل عليه استشفاف نور الحق
من وراء حجب الكائنات ، واجتلاء مرّ الأبد من خلال ظلمة الغيب » كما يزعم
محمد الصباغى ، ويحموها ليس لأنه متهتك كأبى نواس ، يندفع الى اللذة ظمناً إلى
اللذة ، ولكنه الرجل الحائر أمضه الشك ، وأتعبه عقله ، وأرهقه تفكيره ، يندفع
إلى اللذة ، لا لأنها لذة ولكن لأنها تدينه من عالم أرحم وأقل قساوة من عالمنا ،
ويحموها لأن المنون يدنو بخطى جبار فيكون أشد ما يمكن ظمناً إلى الخمر
لفسيان كل شيء :

سارع إلى اللذات قبل المنون فالمر يطويه مرور السنين
وأنت كالأشجار إن قلت فروعها عادت رطاب الفصون

وانما نحن رهاخ القضاء ينقلنا في اللوح أنى يشاء
وكل من يفرغ من دوره يلتقى به في مستقر الفناء
ويكون اندفاع الخيام إلى الخمر واللذات اندفاعاً للذة ولكنها ليحت اللذة التي
في طينة الرجل بتحقيقها والسعى إليها ، ولكنها لذة يأوى إليها بعد أن ينفذ يديه
من كل لذة ، وهو اندفاع للذة وتبرم بالحياة وحرص على الحياة يبلغ إلى الكفر
بالغيب ، وجهود البعث ينوب بعده الى رشده وينتهى مؤمناً في استسلام :
يا قابل الأعداء فشا الى ظلك فاقبل توبة التائبين
وكذلك بحث فمعجز ، فتبرم ، فكفر . وينتهى الكفر ويغيب الجحود ، فلا
يغيب تبرمه بالحياة ، ويبقى الخيام متبرماً كما تبرم المعري والذين لا يعرفون
للحياة طمأ يلد وجانباً يغوى ويستهو ، ولكن تبرم الذى يحسن تذوقها ، ويحذق
الاستمتاع بها وهو يتبرم منها ويعرف الالتذاذ بها وهو ناغم عليها !
هذا هو الخيام وهاته هي فلسفته : اندفاع للذة ، واندفاع للذة تبرم بالحياة

وحرص على الحياة . وقد لا يتبرم من رُزق عناداً وصلابة في العود وصلابة في الكفاح ، ولكن الخيام رجل ضعيف ما خُلِقَ للعفامرة والكفاح فكانت فلسفته تقة واستسلاماً : فعصره جعل منه متبرماً في استهتاره متشاكماً في التذاده واستمتماعه ، وضعفه جعل منه مستهتراً في تشاؤمه ، ومستسلماً تتقاذفه أمواج الحياة أنى تدفعها العواصف والرياح .

يقول ابراهيم عبد القادر المازني :

« بخيل اليك وأنت تقرأ رباعياته المترجمة إلى العربية عن الفارسية كأن الخيام كأولاد البلد » أبناء الجيل الماضي في مصر ممن كان مهم أن يحبوا الليل بالشراب والطرب والأنس ، فاذا تنفس عادوا لمخادعهم وأسدلوا الأستار ، وجبجبا الضوء وألقوا رؤوسهم على الوسادة وناموا ، ولا نعدم من هؤلاء فلسفة ، فقد تسمع منهم قولهم أن العمر قصير وأن المنايا واحدة ، وأن العصفور في اليد خيرٌ من ألفٍ على الشجرة ، وبعد رأسى لا كانت الدنيا ... إلى آخر هاته الكلمات التي تخطر بكل بال ، وتكاد تجري على كل لسان ، والتي هي من الشيوع والابتذال بحيث لا تستحق تكريم الارتفاع بها الى مستوى النظرات في الحياة » .

وقد انتبه القارئ الى هذا ولا شك وهو يتلو ما ذكرنا له . ويعجب لأن يكون للخيام الشاعر المسكنة التي سمعها عنه في الغرب فيتهم النفس الغربية بالبلادة والموت ، وما بالأمر بلادة أو موت . والخيام الذي ترجم له فتزجرالد الانجليزى غير الخيام الذي ترجم له رامى والزهاوى ، فكل ما ترجمه الأخير فلسفة ليست فلسفة مستهتر مهتك عريبد كفلسفة «أولاد البلد» - إن كانت هذه فلسفة - ولكنها فلسفة أو قل آراء متشاك لا حرارة فيها ولا احتياج . وليس كما يقول المازني « ذكر الأيام والفناء والأقدار هنا وفي أمثال هذه الرباعيات يشعرك لفتح الحرارة التي تحسها من رباعيات فتزجرالد وألم الجنون من عجز الشاعر عن حل الألغاز التي يعالجها وفك المعميات التي يعانها وكشف الأمرار التي يفوص عليها » .

وترجمة فتزجرالد هي لشاعر له فلسفته ، وله نظرنه ، وهي لشاعر ساخر متبرم مهتك نحس بقوته وحياته في أى لفنة من التفاتاته وأى حركة من حركانه . وإذا علمنا أن اتفاق الزهاوى ورامى في نضوب ترجمتهما من الحياة هو نضوب رباعيات الخيام من الحياة وهي في الفارسية ، علمنا أن فتزجرالد أسبغ على الخيام

من روحه دون فلسفته أو فقل نفخ في فلسفة الخيام فانقبت حية نابضة ودبت على الاقدام ، وكان الخيام شاعراً بروح فتزجرالد واليه يدين بما له من ذبوع وشهرة ، فلولاها لما كان الذي كان ، ولبقى في ظلال النسيان والاهمال . ونذكر جيداً أن سرّ خود ذكر الخيام في الشرق طيلة ثمانية قرون هو في الخيام نفسه وأن ذبوع الخيام وشهرته هو لفتزجرالد .

* * *

واليوم ينام الخيام وينام فتزجرالد : الأول في نيسابور والثاني في انجلترا ، كتبت لهما الصداقة في البقاء ، صديقان لا يفترقان إلى الأبد ، اشتركا في أثره هو من أجل الآثار التي يقرأها الانسان ويتلوها ما

محمد عبد الحامد

تونس :

بشار بن برد

أخلاقه في شعره

بشار بن برد شاعر مجيد من شعراء الدولة العباسية ، وُلد أعمى من بطن أمه ، وقال الشعر وهو ابن سبع سنوات ، وأول ما قال في الهجاء . وكان هجاءه مقدعاً جَدُّ الافذاع وقد تفنن في ضروبه الى أن امتدَّت لسانه أخيراً الى هجاء أمير المؤمنين المهدي عم هارون الرشيد فأعلمه أحد الامراء بما قال بشار فيه وكان هذا الأمير حاتقاً على بشار لأن بشاراً كان قد هجاء من قبل فأمر المهدي بأن يجلد بالسياط ولذلك سبب لا يخفى على أديب وإن كان في نفس المهدي الانتقام منه من جراء هجائه له فألمه الضرب ومات بعد أن بلغ من الكبر عتياً وكان الضرب سبب موته . وبشار يجيد المدح كل الاجادة لأنه اتخذ وسيلة لكسبه وسدَّ عوزه ، وكان يتردد على الامراء وأصحاب النزاء فيمدحهم بالقصائد المحكمة الرصينة فيبذلون له المال ويعطونه ما يريد ، لا اختياراً منهم ولكنهم كانوا يفرقون من لسانه البذيء أن يمتدَّ اليهم فيلبسهم عاراً ، والويل لمن يمدحه بشار ولم يعطه شيئاً . وناهيك بشاعر يقول كلمة فلا نكاد نخرج من فيه حتى تسمعها من وقتها وقد لا كتبها أفواه العامة غاديتها ورأى أنها فهو إن مدح أحداً فلسان حاله يقول : إن لم ترد حمدي فراقب ذمي ا

وقد يبلغ في مدحه أحياناً الى الغلو، مثال ذلك قال يمدح رجلاً يقال له عقبة ابن سلم :

حرم الله أن ترى « كابن سلم » « عقبة » الخير مطعم الفقراء
ولك أن تتأمل في « حرم الله أن ترى كابن سلم » فتعرف مقدار تزلفه ومغالاته في المدح، والشواهد على ذلك كثيرة في ما بقى لنا من أشعاره وما بقى لنا منها الا النذر اليسير . والتاريخ يقصّ علينا أن بشاراً نظم اثني عشر ألف قصيدة فضيعها الإهمال وخيم عليها النسيان بطول الزمن فلم يبق منها غير مقطوعات وقصائد قليلة متفرقة في بطن كتاب (الأغاني) .

ولبشار غزلٌ يسيل ظرفاً ورقة ، ويتدفق شهداً وحلاوة ، خال من كل تعقيد وكلفة ، وإن لم يخل من الاستهتار في بعض المرات . وكيف لا يكون رقيقاً في غزله وهو الذي راض أحوال النساء وعرف دخائلهن وهو القائل :

عمر النساء الى ميسامة والصعب بمكن بعد ما جمعا
وقد يأخذك العجب في أعمى بحب وبهيم بالمحبوب، ويتيمّم الحب ولكن دهشتك قد تزيد إذا قرأت له أبياتاً وقد وصف فيها المحبوب وصفاً دقيقاً كأنها المبصر من الشعراء المجيدين . مثال ذلك قوله :

بنت عشر وثلاث قسمت بين غصن ، وكثيب ، وقرأ
دُرّة بحرية مكنونة مازها التاجر من بين الدرر
وقوله :

وما نظرت عيني غداة لقينها بشيء سوى أطرافها والمهاجر
وحوراء من حور الجنان غريبة يرى وجهه في وجهها كل ناظر
هل هذه الأبيات لشاعر أعمى ؟ أجل : هي لبشار الشاعر الأعمى الذي يقول :
إن كان عيني لا ترى وجهها فانها قد صوّرت في الضمير
أو يقول : ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب

ولكن ضمير بشار في بعض المرات يكون مصوراً ماهرّاً يصوّر له الحبيب بماء اللؤلؤ في صورة فائنة ساحرة حتى أن عينه « التي في ضميره » اذا وقعت على جارحة من جوارح الحبيب بأمرها صفاء تلك الجارحة ورواؤها وتناسب

أعضائها فيعتبره في الحال ارعاد في داخل الحشا ويخيل اليه وهو ينظر الى محبوبته
أن لكل جارحة من جوارحها وجهاً مليحاً فأنساً ماثلاً أمامه ، وهذا خيال
بديع . قال :

تلقي بنسبيحة من حسن ما خلقت وتستفز حشا الراني بإرعاد
كأنما صوّرت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجه بمرصاد
ويعجبني قوله يخاطب الحبيب :

أملى الا نأت في قره لحديث واثق الذرعا
وتوق الطيب ليلتنا إنه واش اذا سطعا

غير أنه تطلب عليه الزندقة أحياناً فيخفيها .

ومهما نكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وللزندقة من الخاصية التي تعرف بها كما للطبيب من الخاصية التي نظره وتتم عنه
فهو يقول مفضلاً ابليس على أبينا آدم وينعت الناس كلهم فاجرم وتقيهم بكلمة
« الفجار ! » في غير تورع :

ابليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار !
ابليس من نار و آدم طينة والأرض لا تسمو سمو النار

وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه وظن أنه من مارج من نار ! ولكن زندقته لم
تقف عند هذا الحد بل ذهب يتفتن في ضروب تفضيل النار على الطين ، أو بعبارة
أخرى الجان على البشر بحجة أن النار كانت إلهاً يعبد منذما عرفت بين الناس ، قال :

الأرض مظلة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ولبشار ولع بشرب الخمر وإدمانها لا يقل عن ولعه بالتشيب بالنساء ومغازلتهم
فهو يقول واصفاً الخمر وما تفعله بالعقول من قوة مفعولها :

تفتت نفحة فهزت ندعى بنسيم وانشق عنها الزكام
وكان المعلول منها اذا راح شجر في لسانه برسام
صدمته الفمول حتى بعينه انكسار وفي المفاصل خام

وهو باقى الأطراف حيث به الكأُ سُ ، وماتت أوصاله والكلامُ ا
ولكن رغباً عن ادمانه على الخُر وولعه الشديد بها لا يجهل ما تجره على شاربيها
من ضرور كما كان ما لا يرام ، مع ضياع ماله وعدم معاودة الكرى لعينيه من الهم
الذى لحقه من ضياع المال وبكائه كالطفل حين تفيب عقله وتفقد صوابه ، قال :
وفى يشرب المدامة بالمسا ل ويمشى يروم ما لا يرام
أنقذت كأسه الدنانير حتى ذهب العين واستمر السوام
تركته الصهباء يصبو بعين نام انسانها وليست تنام
جن من شربة نمل بأخرى وبكى حين سار فيه المدام
وكيف لا يكون عارفاً بتأثير الخُر فى عقول شاربيها وما تجره عليهم من
ويلات من يقول :

قد عشت بين الندمان والراح والمز هر فى ظل مجلس حسن
فهو اذاً خير لا يلتبس عليه أمر فى كل ما زعم من قول عن الخُر .

وأخيراً لا يسنى قبل أن أختتم الكلام الا أن أقول إنى لم أجد من بين شعراء
العربية من له شعر يضارع شعر بشار سلاسة ورقة وأسلوباً سهلاً كأسلوب بشار فى
أشعاره ، ولا سيما ما كان من أشعاره فى الغزل ، وكيف لا يكون كذلك من
يقول عن نفسه :

وشعر كنور الروض لامت بينه بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلاً

الجزيرة أبا : السردان بصرى السبر أمين

